مجلة الهلال

فبراير 1997

الخطر الإسلامي أسطور أم حقيقة؟

عرض لكتاب: جون إسبوسيتو
The Islamic Threat: Myth or Reality, John L. Esposito

بقلم: د. رءوف عباس

شهد العقدان الأخيران فيضا من الكتابات التى سطرتها أقلام كتاب من الغرب بمختلف اللغات، تعنى برصد وتحليل ظاهرة "الإسلام السياسى"، أو "الإحياء الإسلامى"، أو"المد الأصولى الإسلامى"، أو "الخطر الأخضر" إلى غير ذلك من مسميات تداولها أولئك الكتاب على اختلاف مواقعهم السياسية وانتماءاتهم الفكرية.

وحظ كل منهم من المعرفة بالظاهرة التى يتصدى لدراستها، ومدى علمه بالثقافة التى تعبر عنها هذه الظاهرة، فقد جمعت تلك الكتابات بين التحريض ضد ظاهرة الإحياء الإسلامى، ودق ناقوس الخطر إيذانا بحرب بارد ة (أو ساخنة) جديدة بين الإسلام والغرب، يحل فيها الإسلام محل الشيوعية التى خبت جذوتها وأصبحت بردا وسلاما على الغرب، ومحاولة فهم العوامل الكامنة وراء الظاهرة وتحليلها تحليلا علميا دقيقا على نحو ما فعل أوليفيه روى فى كتابه (إخفاق الإسلام السياسى) الذي عرضنا له فى "هلال يناير" أو محاولة الارتزاق من وراء تقديم ظاهرة الإحياء الإسلامي بالكتابة فى مجال تتلقفه دور النشر الغربية، دون فهم لأبعاد الظاهرة أو حتى محاولة الفهم، على نحو ما فعل"فلهلم ديتل Wilhelm Dietl" الصحفى الألماني فى كتابه الذى حمل عنوان "الجهاد" Holy War الذى نشر بالألمانية وظهرت ترجمته الانجليزية عام 1984.

وبين هذا الفيض الزاخر من الكتابات الغربية عن الإسلام عامة وحركة الإحياء الإسلامى خاصة، يقف جون إسبوسيتو نموذجا فريدا لعالم ضالته الحقيقة، وأمله إقناع قومه بها، وتجاوز اهتمامه بالقضية الحدود الأكاديمية التقليدية، فاستطاع أن ينشئ بجامعة جورج تاون بالولايات المتحدة "مركز التفاهم الإسلامي – المسيحى" وأصبح مديرا له، ووقف جهده على تبنى النشاط البحثى الذي يخدم التقارب بين الإسلام والغرب، وا ٍبراء ساحة الإسلام من الطبيعة العدوانية التى يصمه بها الكثير من كتاب الغرب.

وجون إسبوسيتو – أستاذ الأديان والعلاقات الدولية بجامعة جورج تاون– قسيس كاثوليكى يسوعى (جزويت)، تخصص فى دراسة الإسلام: تاريخه، وحضارته، وشعوبه، نشر له على مدى ما يزيد قليلا على عقدين من الزمان ستة كتب عن الإسلام هى: "الصراط المستقيم" الذى يلقى فيه نظرة شاملة على الإسلام كدين وحضارة، و"الإسلام والسياسة" الذى حلل فيه ظاهرة الإسلام السياسى، وصحح الكثير من المفاهيم الغربية الخاطئة حولها، و"الإسلام فى آسيا" تناول فيه ظاهرة الخصوصية والتنوع التى تميز الثقافة الإسلامية، ثم "دعاوى الإحياء الإسلامى" وهو كتاب يضم بحوث ندوة عقدت فى أوائل الثمانينات وشارك فيها إسبوسيتو وتولى تحرير الكتاب، وكذلك كتابه "المرأة فى الشريعة الإسلامية" الذى ألقى فيه الأضواء على ما تميز به الإسلام مقارنه بالثقافة الغربية فى القرون الوسطى وصحح الكثير من الأخطاء التى شاعت فى الغرب حول هذه القضية، وأخيرا وليس أخرا، كتابه "الخطر الإسلامى: أسطورة أم حقيقة" الذى نعرض لأبرز فكاره اليوم، وهو محاولة صادقة من المؤلف لتفريغ مقولة المواجهة الإسلامية المرتقبة مع الغرب من محتواها، على أسس علمية تقوم على الفهم العميق لمختلف أبعاد ظاهرة الإحياء الإسلامى، وقد نشر الكتاب عام 1992، وقوبل فى الدوائر العلمية والسياسية الغربية باهتمام شديد، وما لبثت أن صدرت طبعته الثانية المنقحة فى عام 1995 وهى التى نعرض لها فى هذا المقال. بقى أن يعلم القارئ الكريم أن المؤلف من بين مستشارى وزارة الخارجية الأمريكية فيما يتصل بشئون العالم الإسلامي.

بين الأصولية والتعصب

ويستهل إسبوسيتو كتابه بطرح عدد من الأسئلة: هل يتجه الإسلام والغرب إلى مواجهة لا مفر منها؟ هل يعد المسلمون الأصوليون متعصبين تعصب أهل العصور الوسطى؟ هل يتعارض الإسلام مع الديمقراطية؟ هل الإسلام الأصولى يهدد الاستقرار السياسى فى العالم الإسلامى ومصالح الولايات المتحدة فى الإقليم؟ وبعدما يعدد ما يروج فى الإعلام الغربى من أفكار مبالغ فيها (على حد تعبيره) عن الخطر الإسلامى والصراع المتوقع بين الإسلام والمسيحية كحضارتين متناقضين، يعلن المؤلف لقرائه أن الهدف من الكتاب وضع ما يسمى بالتحدى أو الخطر الإسلامى فى إطاره الحقيقى ومناقشة حيوية الإسلام كقوة دولية، وتاريخ علاقته بالغرب، ويبين أن البلاد الإسلامية – وكذلك الحركات الإسلامية – تتم بالتنوع والتباين فى سياساتها وا يديولوجياتها وتوجهاتها التنظيمية، وخططها وسياساتها الخارجية فيما اتصل بالإحياء الإسلامى، كذلك يهدف الكتاب إلى دراسة القضايا التى تواجه الإسلام والغرب فى التسعينات والتحدى أو التهديد المحتمل للغرب من جانب الإسلام على ضوء مسألة سلمان رشدى، وحرب الخليج 90 –1991، والنظام العالمى الجديد، وتحديات التحول الديمقراطى فى العالم الإسلامى، لنتبين حقيقة احتمالات الصراع أو التعاون بين الإسلام والغرب.

ولما كان الكتاب موجها للقارئ الغربى، فقد اهتم المؤلف بشرح أبعاد الحركات الإسلامية المعاصرة باعتبارها حركات نبعت من عجز البلاد الإسلامية عن حل مشكلات التنمية بما ترتب على ذلك من أزمات اجتماعية، جعلت فكرة طرح البديل الإسلامى واردة، ولكن منظور تلك الحركات للبديل الإسلامى تنوع من الإصلاح إلى الثور ة. وتتبع المؤلف جذور علاقة الإسلام بالغرب فى التجربة التاريخية، وكيف تأرجحت تلك العلاقة بين الصراع، والتعاون، والمواجهة (كما حدث فى الحروب الصليبية) ثم ما ترتب على الهيمنة الغربية فى عصر الاستعمار من رد فعل من جانب المسلمين الذين رأوا فى الاستعمار الغربى لونا جديدا من ألوان العدوان الصليبى، وانتقل المؤلف من تلك الخلفية التاريخية الطويلة إلى الحديث عن الحركات السياسية الإسلامية وجذورها الفكرية عند السيد جمال الدين الأفغانى والاتجاه الإصلاحى عند الشيخ محمد عبده وتلاميذه، ثم دعوة محمد رشيد رضا وتأثر حسن ألبنا بها، وتأسيس حركة الإخوان المسلمين فى مصر وحركة الجماعة الإسلامية فى الباكستان، ثم القى نظرة بانورامية على الحركات الإسلامية من المغرب إلى جنوب شرق آسيا (اندونيسيا وماليزيا) مرورا بإيران والثورة الإيرانية.

فقدم رؤية كاشفة استغرقت خمسة من فصول الكتاب الستة تدرجت بالقارئ من هامش القضية إلى قلبها، ومن ظاهرها إلى جوهرها ليصل المؤلف به إلى فهم محدد للظاهرة يؤكد اتسامها بالتنوع، فلا توجد صيغة واحدة للإسلام على نحو ما يشيع فى الغرب بل هناك صيغ مختلفة، ولا توجد حركة موحدة للإحياء الإسلامى، وا ٍنما هناك حركات عدة، تتباين مع بعضها البعض بتباين ظروف بلادها، فتعبر كل منها عن واقعها الوطني، وتجتهد للبحث عن حلول لقضاياها، بل تتنوع الحركات الإسلامية فى البلد الواحد وتتصارع فيما بينها، كما يخلص القارئ إلى أن كوادر الحركات الإسلامية جاءت – فى الغالب– من المتعلمين تعليما حديثا (غربيا) من أبناء الطبقة الوسطي، وأن معظمهم يتبع تكتيكات سياسية ذات أصول غربية، ولا يترددون فى التعاون مع قوى، المعارضة العلمانية فى بلادهم فى حالة الأزمة، ورغم اتسام بعض تلك الحركات بالعنف والإرهاب كما هى الحال فى إيران والجزائر وأفغانستان والباكستان، فإن ذلك العنف يعبر عن ظروف تلك البلاد فى مراحل معينة من تاريخها المعاصر.. فهناك إلى جانب الجماعات التي تمارس العنف والإرهاب، جماعات أخرى تتخذ طابعا اجتماعيا – سياسيا، وتستخدم أدوات الصراع السياسى المعروفة فى الغرب.

الإسلام والغرب

ويصل المؤلف بنا إلى الفصل السادس والأخير الذى يجيب فيه عن الأسئلة التى طرحها فى مطلع الكتاب، وهو أكبر فصول الكتاب (75 صفحة يمثل نحو 30% من حجم الكتاب)، واختار له عنوان "الإسلام والغرب: هل هو صراع حضارات؟"، وهو فصل مهم يعكس رؤية إسبوسيتو للحركة الإسلامية المعاصرة وفكره، ولما كان الرجل – على نحو ما رأينا – من مستشارى الخارجية الأمريكية فى شئون العالم الإسلامي، فإن هذا الفصل يستحق منا أن نقف أمامه وقفة طويلة فى هذا المقال.

ينتقد المؤلف منهج الغرب (يقصد أمريكا طبعا) فى التعامل مع الاتحاد السوفييتى فى الحرب الباردة باعتباره "إمبراطورية الشر"، وما ترتب على ذلك من تحمل الاقتصاد الغربى تكاليف باهظة لمواجهة الخطر السوفييتى الذي اتضح فيما بعد أنه كان وهما، فقد جعلت تلك النظرة الأحادية ساسة الغرب وخبراءه يعمون عن رؤية عوامل التفسخ والتحلل، ليتبين فى نهاية الأمر أن "إمبراطور الشر" كان عاريا تماما، ويحذر إسبوسيتو قومه من أن تجرهم أحداث العالم الإسلامى إلى نفس الموقف السابق، فيتصورون الاسلام خطرا محدقا بالغرب، ويرون فى الإحياء الإسلامى تهديدا بقيام جامعة إسلامية عالمية موحدة تحيى العداء التاريخى للغرب، وتسعى لمواجهته، ومن ثم يندفع الغرب إلى تأييد ودعم النظم العلمانية فى العالم الإسلامى مهما كان الثمن ومهما بلغت درجة استبداد وفساد تلك الأنظمة السياسية، بدلا من تحمل مخاطر قيام أنظمة جديدة بتلك البلاد ذات توجه إسلامى، ويؤدى ذلك – فى رأى المؤلف– إلى النظر إلى الاستقرار السياسى فى العالم الإسلامى من خلال الحفاظ على الأوضاع الراهنة فيه، مهما تناقضت مع القيم الديمقراطية، وحق تقرير المصير، والمشاركة السياسية، وحقوق الإنسان، ويرى المؤلف أن مزيجا من الجهل والمبالغة، واستدعاء إحن الماضى والإرث التاريخى المشرب بالتعصب الدينى – الثقافى يعمى أبصار ساسة وعلماء الغرب– حتى من كان منهم حسن النية– عند التعامل مع العالم العربى والعالم الإسلامى، وكذلك الحال بالنسبة لكوادر الحركات الإسلامية عند تعاملهم مع الغرب.

هذا الموقف الانتقائى من جانب معظم الكتاب والساسة والأكاديميين الغربيين عند تحليل الحركة الإسلامية يستبعد الدوافع التى تشير إليها عناصر الحركات الإسلامية (ومعهم أغلب العرب والمسلمين) عند انتقادهم للغرب ورفضهم له مثل الإمبريالية، وتحيز أمريكا لإسرائيل، ودعم الحكومات الغربية للأنظمة الاستبدادية (شاه إيران، تونس، نظام النميرى فى السودان، لبنان). ويركز هؤلاء على القول بأن الحركات الإسلامية نتاج للصراع الحضارى والتعصب الدينى الغاشم.

التخلص من الهيمنة الامبريالية

ويعبر الغرب دائما عن مخاوفه من خطر إسلامى مرتقب بمقولة "الجامعة الإسلامية Pan-Islamism"، وكثيرا ما استخدم هذا المصطلح لوصف حركات التحرر الوطنى فى العالم الإسلامى الرامية إلى التخلص من الهيمنة الإمبريالية. وما زالت تلك المخاوف قائمة اليوم منذ اندلاع الثورة الإيرانية بقيادة الخمينى إلى قيام ثورات إسلامية فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، كما أن بعض الحكومات العربية تؤكد فى تعاملها مع الغرب على خطورة الحركة الإسلامية لا على الصعيد الإقليمى فحسب، بل وعلى الصعيد العالمى، وذلك للحصول على التأييد الغربى للسياسات القمعية ضد الحركات الإسلامية فى بلادها، كذلك تحرص إسرائيل على إقناع الغرب بقدرتها على دفع الخطر الإسلامي المرتقب عنه، بعد ما سقطت حجتها السابقة بأنها تقف سدا منيعا ضد انتشار الشيوعية بالشرق الأوسط بعد سقوط الشيوعية،

وبذلك تلتقى مصالح بعض الدول الغربية مع إسرائيل فى التضخيم من (الخطر الإسلامى) وا ٍضفاء الصفة (العالمية) عليه استدرارا لمعونات الغرب، وجذبا لدعمه السياسي.

ويرى المؤلف أن مقولة "الجامعة الإسلامية" أسطورة أثبت التاريخ عدم صحتها، فالبلاد التى يضمها ما يعرف بالعالم الإسلامي تتنوع، وتتباين، بل وتتناقض عن بعضها البعض، وعوامل التفكك فى العالم الإسلامى تفوق عوامل الوحدة. ويضرب مثلا لذلك بما تتمتع به الولايات المتحدة من علاقات طيبة حميمة مع السعودية ومصر والكويت والباكستان ودول الخليج العربي، رغم علاقاتها السيئة مع ليبيا وا ٍيران، وكذلك عجز منظمة المؤتمر الإسلامى عن التوصل إلى موقف موحد فى قضايا : فلسطين، وأفغانستان، وحرب الخليج، والبوسنة، فالمصالح الوطنية والأوضاع السياسية الإقليمية تلعب دور المحدد الرئيسى للسياسات الخارجية لبلاد العالم الإسلامى وليس الإيديولوجية أو الدين، وهى بذلك عامل فرقه لا اتحاد، مما يسقط أسطورة "الجامعة الإسلامية" التى تثير مخاوف الغرب.

ويتنقل المؤلف بعد ذلك إلى مناقشة مقولة "صراع الحضارات" فيرى أن النظرة إلى الإسلام باعتباره نقيضا للحضارة الغربية، وأن الصدام محتوم بينهما، إنما تتصور أن الإسلام أحادى الصيغة وتعمى عن طبيعته التعددية وعن التنوع الذى يميز العالم الإسلامى، فهى تنظر إلى الإسلام والمسلمين من خلال منظار آية الله الخمينى والثورة الإيرانية التى أثرت تأثيرا بالغا على رؤية الغرب عامة والشعب الأمريكى خاصة للإسلام والعالم الإسلامى، ومن ثم النظر إلى الصراعات السياسية فى السودان، ولبنان، والبوسنة، وأذربيجان، على أنها صراعات إسلامية –مسيحية بالدرجة الأولى، وا ٍغفال القضايا لسياسية التى تكمن وراء تلك الصراعات (القومية، حق تقرير المصير، الاستقلال)، والقضايا الاجتماعية المرتبطة بها.

وبعد مناقشة مستفيضة لفكرة "صراع الحضارات" كما طرحها هانتنجتون، فدحض مقولة الأخير عن الاختلاف فى العقائد والقيم بين الحضارات الإسلامية والحضار ات الغربية (المسيحية – اليهودية) كأساس للصراع المرتقب، وأكد أن الإسلام والمسيحية واليهودية تحمل الكثير من القسمات المشتركة بغض النظر عن اختلاف العقائد والقيم، وأنه رغم الصراعات التاريخية التي اتسمت بالعنف والمواجهة، فإن ذلك يمثل جانبا واحدا من الصورة و ليس الصورة كلها، إذ كان التداخل الايجابى والتأثير المتبادل قائما على قدم وساق بين الإسلام والمسيحية واليهودية على مر تلك العصور، وأن الغرب مدين للحضارة الإسلامية بالكثير من المعارف والعلوم التى انطلقت منها نهضته الحضارية لتخرجه من ظلام العصور الوسطى، كما يدين العالم الإسلامى للغرب بنفس الدرجة بالكثير من المعارف والعلوم والخبرات التي انتقلت إليه فى العصر الحديث من المغرب.

وتقدم التسعينات –فى رأى المؤلف– اختبارا لقدرة المحللين السياسيين وصناع الساسة على التمييز بين الحركات الإسلامية التى تمثل تهديدا للغرب وتلك التى تمثل محاولات إصلاحية وطنية شرعية تعمل لإعادة توجيه مجتمعاتها، والتمييز بين أهداف السياسة الخارجية قصيرة المدى، والمصالح بعيدة المدى، وبين مخاوف التهديد الإسلامى والحقائق التى تنافى ذلك. ويرى إسبوسيتو أن صورة ومصداقية الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط سوف تتأثر فى العقد القادم (العقد الأول من القرن 21) بقدرة الحكام المسلمين على الاستجابة للأصوات الداعية للتغيير فى بلادهم بدعم الثقافة السياسية والقيم والمؤسسات التى توسع دائرة المشاركة السياسية وتقوى دعائم المجتمع المدنى، كما تتأثر بقدرة صناع السياسة فى الغرب على الأخذ بالرؤى المقارنة التي تعترف بتعددية صيغ الإسلام السياسى وتحرص على التعامل معها بطرق مختلفة.

فالحركة الإسلامية المعاصرة تمثل تحديا وليس خطرا، تحديا يدعو الغرب إلى تفهم التعددية والتنوع فى التجربة الإسلامية، ويدعو الحكومات فى البلاد الإسلامية إلى الاستجابة للمطالبة الشعبية بالليبرالية السياسية وتوسيع دائرة المشاركة السياسية الشعبية والقبول بحركات المعارضة السلمية بدلا من قمعها، وبناء مؤسسات ديمقراطية حقيقية، كما يدعو الدول الغربية إلى الوقوف إلى جانب القيم الديمقراطية فتميز بين الحركات الشعبية الأصيلة، والحركات الثورية العنيفة، والاعتراف بحق الشعوب فى تقرير طبيعة حكوماتها واختيار حكامها. فالخلافات بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الإسلامية ترجع إلى تباين المصالح السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية و لا ترجع إلى مقولة "صدام الحضارات".

ويذهب المؤلف إلى أن الكثير من المسلمين يرون فى الإحياء الإسلامى حركات اجتماعية أكثر من كونها سياسية، هدفها إقامة مجتمع ذى توجه إسلامى ولكنها لا تسعى – بالضرورة– إلى إقامة دولة إسلامية، بينما يرى آخرون أن إقامة المجتمع الإسلامي تقتضى قيام دولة إسلامية، وعلى حين يدعو البعض إلى العنف والثورة يرى الآخرون عكس ذلك. والإسلام ومعظم الحركات الإسلامية ليست معادية بالضرورة للغرب أو أمريكا أو الديمقراطية وا ذا كانت الحركات الإسلامية تمثل تحديا للنظام القائم وللأنظمة الأوتقراطية فهي لا تهدد–بالضرورة – المصالح الأمريكية، ويري المؤلف أن التحدى الحقيقى الذى يواجه الغرب هو السعي لفهم التاريخ، وحقائق العالم الإسلامي فهما صحيحا، وأن يعترف بالتعددية وتنوع أشكال الإسلام وصيغه، فذلك كفيل بتقليل مخاطر الوقوع فى أوهام النبوءات التي صنعها البعض (مثل مقولة صدام الحضارات) لتأجيج نيران الحرب بين الغرب والإسلام الراديكالى.

***

ترى هل كان لجون إسبوسيتو دور فى إقناع حكومة بلاده بفتح حوار مع فصائل الحركات السياسية الإسلامية فى العالم الإسلامى عامة، والعالم العربى خاصة تحسبا لما قد تأتى به رياح المستقبل؟ وهل كان ذلك يتمشى مع دعوته للتعامل مع كل حركة على حده، وفى إطار الظروف الإقليمية ومن منظور مصالح الغرب والولايات المتحدة تحديدا؟ إن ما يتواتر من أخبار عن الحوار الأمريكى مع فصائل حركة الإحياء الإسلامى الذى أثار ثائرة نظم الحكم المتعاونة مع أمريكا بوحى بأن تلك الحوارات تسترشد بالكثير مما طرحه المؤلف فى هذا الكتاب.